تصدّع بنية 'الذكورة المهيمنة'
ومحاولات إنقاذها

آمال قرامي
أستاذة محاضرة
بالجامعة التونسية

المقدمة

ترتّب عن تطوّر الحركات النسوية والدراسات النسائية والدراسات الجندرية[1] ، وخاصّة في الأوساط الأنجلوسكسونية الغربية[2] نشأة الدراسات الذكورية والدراسات الرجولية (منذ السبعينات). وأفضى ظهور الجمعيات الأمريكية المطالبة بحقوق الرجال (منذ الثمانينات) وبروز حركات المثليين والكوييرQueer (منذ التسعينات)إلى تطوير مجال البحث في هذه النوعيّة من الدراسات.

وانصبّت عناية المتخصّصين في هذا الحقل المعرفي على تفكيك بنية الذكورة وبيان تعدّد أشكالها وأنماطها والتأكيد على أنّ مسارات تشكّل الذكورة متنوّعة وتختلف من ثقافة إلى أخرى، ومن ثمّة تعيّن الحذر من التعميم والانتباه إلى وجود فروق فردية بين الرجال بحسب الأمكنة والأزمنة.

ولمّا كانت الذكورة خاضعة لمبدأ التحوّل والتفاوض فقد التزم الدارسون بالحديث عن الذكورات بصيغة الجمع والتأكيد على أنّ الزوج ذكورة/ أنوثة بناء اجتماعي ثقافي وتاريخي مرتبط بالسنّ واللون والعنصر والطبقة وغيرها من العوامل، كما أنّهم سعوا إلى فضح الثقافة البطريكية وتحليل أزمة الذكورات المعاصرة ونادوا بتخليص الذكورة المهيمنة من العدوانية والإحساس بالتعالي والنرجسية وبغض النساء وغيرها من القيم والصفات التي تسجن الرجال في أدوار محدّدة وتحول دون اعترافهم بوجود سمات أنثوية لديهم.[3]

وقد شهدت الدراسات الرجولية في السنوات الأخيرة، تطوّرا ملحوظا في الغرب فظهرت اختصاصات فرعية كعلم نفس الرجال وسوسيولوجيا الرجال وذاع صيت عدد من الدوريات العلمية المتخصّصة في هذه النوعيّة من الدراسات.[4] ولفتت منظمات الأمم المتحدة المهتمة بمسألة المقاربة الجندرية للتنمية انتباه المنشغلين بقضايا

---

[1] نفضل استعمال الجندر بدل الجنوسة أو النوع الاجتماعي أو نوع الجنس أو غيرها من المصطلحات التي سادت في الكتابات الصادرة باللغة العربية ونعتبر أنّ عدم توحيد المصطلح المقابل لل. Gender قد حال دون انتشار هذه الدراسات في 'العالم العربي'.
انظر موقفنا من إشكالية المصطلح في كتابنا 'الاختلاف في الثقافة العربية الإسلامية: دراسة جندرية،ط1، بيروت ، دار المدار الإسلامي، 2007، (أطروحة دكتورا دولة أشرف عليها الأستاذ عبد المجيد الشرفي، نوقشت سنة 2004 بجامعة منوبة- تونس).

[2] يقر الدارسون الفرنسيون مثلا بتأخر هذه النوعية من الدراسات فهم لا يملكون بحوثا معمّقة حول الهيمنة الذكورية انظر:
Danie. Welzer-Lang, Etudier les hommes et les rapports sociaux de sexe : ou' sont les problèmes ? in ,Revue de sociologie et d'anthropologie,n5, « Le genre de la catégorisation du sexe »,sous la direction de Nicky Le Feuvre,L'Harmattan,Paris,2002,p289.

[3] تدرس مسألة الرجولة في أقسام السوسيولوجيا والتاريخ وعلم النفس والعلوم السياسية والآداب.

[4] Journal of Men's Perspectives; Journal of Men's Studies; Everyman: A Men's Journal; Voice Male.

التنمية(الاجتماعية،الاقتصادية، السياسة،...) إلى ضرورة دراسة بنية الذكورة ونمط العلاقات بين الجنسين لِما لهما من أهميّة في استجلاء علاقات الهيمنة السائدة بين الرجال والنساء.

وإذا انتقلنا إلى 'العالم العربي' تبيّن لنا أنّ بعض الجامعات اللبنانية كانت سبّاقة إلى تناول مسألة الرجولة إذ أثير هذا الموضوع في أعمال مؤتمرين حول 'الجنسانية في العالم العربي' [5] وصدرت بعض المؤلفات التي عالجت تشكّل الذكورة وأزمات الرجولة وحاولت أيضا نزع القناع عن الذكورة المؤسطرة نذكر في هذا الصدد، كتابين نعتبرهما أساسين: "الرجولة المتخيّلة" و"الرجولة وتغيّر أحوال النساء"[6] فضلا عن صدور عدد خاصّ من مجلة الرائدة[7] تحت عنوان"الذكورة".

واهتمّت مختلف وسائل الإعلام أيضا بموضوع الذكورة والهويّة وتعدّد الأنماط الرجالية وتباين الذكوريات فبرزت مجلات مختصّة بالرجال نذكر من بينها مجلة 'آدم'[8] فضلا عن ظهور برامج تعكس اهتمامات الرجال في بعض الفضائيات كبرنامج 'آدم' الذي تقدّمه قناة الم ب س MBCوبرنامج' للرجال فقط' الذي يعرض على القناة الكويتية' الراي'. وبالإضافة إلى ذلك ظهرت أعمال روائية و شعرية وسينمائية[9] عبّرت عن ردّ فعل الرجال إزاء التغييرات التي أحدثتها قيم الحداثة والعولمة والنسوية وغيرها في المجتمعات المعاصرة.

ولئن كان أغلب الباحثين في مجال الدراسات الذكورية أو الرجولية، في الغرب من جنس الذكور فإنّ أكثر المنشغلين بهذه النوعيّة من الدراسات في 'العالم العربي"حسب علمنا' هم من النساء.[10] ويعزى اهتمامهن بهذا الحقل المعرفي إلى اقتناعهن بأنّ تغيير وضع المرأة في المجتمعات العربية مرتبط أساسا بتحليل الزوجين ذكورة/أنوثة وهيمنة/خضوع وإماطة اللثام عن الأزمات التي يتخبّط فيها الرجال والنساء.

ويرجع سبب اهتمام فئة من الباحثين بهذه النوعيّة من الدراسات إلى اقتناعهم بأهميّة طرح المسألة الذكورية على محكّ الدرس والتمحيص واعتبار الرجل هو أيضا، موضوعا للدراسة، خاصّة وأنّه لم يعد بالإمكان التخفّي وراء الخطاب الذكوري السائد أو الأيديولوجيا

---

[5] نظم مركز الأبحاث السلوكية في الجامعة الأمريكية في بيروت بالتعاون مع مركز الشرق الأوسط في كلية سان أنطونيس في أكسفورد بين 1999و2004 مؤتمرين حول "الجنسانية في العالم العربي" نشرت الأعمال في مؤلف
Khalaf,S and Gagnon,J(eds) Sexuality In Arab World, Saqui Books,Beirut, 2006.

[6] عزة إعداد مي غصوب وإيما سنكليرويب ،الرجولة المتخيلة :الهوية الذكرية والثقافة في الشرق الأوسط الحديث ،ط1، بيروت ،دار الساقي، 2002.، شرارة بيضون، الرجولة وتغير أحوال النساء، دراسة ميدانية،ط1، الدار البيضاء –بيروت ، المركز الثقافي العربي ، 2007

[7] تصدر مجلة الرائدة عن معهد دراسات المرأة في العالم العربي التابع للجامعة اللبنانية الأمريكية في بيروت
Al –Raida ,XXI,104-105,2004 وانظر أيضا:
.Intersignes,La virilité en Islam,N11-12,Printemps,Paris, 1998.

[8] تحتفي هذه المجلات بالأنشطة الذكورية ككرة القدم وقيادة السيارات وتروج صورا نمطية للرجولة. ومن بين الصحف التي اهتمت بالقضايا النفسية والاجتماعية والاقتصادية للرجال نشير إلى جريدة الحياة اليومية(اللبنانية) ملحق 'أسرة' بتاريخ 2006/9/7.

[9] من بين الأفلام التي طرحت تعدد الذكورات نذكر الفيلم المصري، 'عمارة يعقوبيان'، والفيلمين التونسيين ،' عصفور سطح'، و'كلمة رجال'.

[10] من المقالات التي اهتمت بالموضوع نذكر دلال الأهوازي، 'تحرير الرجل العربي من الرجولية الوهمية' ومقال عبد اللطيف درويش، 'خواطر غير مرتبة في نقد جنسوية ذكورية منظمة'، في تاريخ www.rezgar.com2006/7/28 و.حوار أجراه علي القميش مع نهى بيومي

تحت عنوان، المواقف من النسوية: أشكال رمزية لأخلاق سياسة محافظة، نشر بموقع 2005. ومقال كلاديس مطر www.josour.com بتاريخ 10 يونيو ،خلف حجاب الانوثة نشر بتاريخ 9 حزيران, 2006 .، عياد أيلال، صورة المرأة العربية وتفكيك الفحولة المتخيلة، نشر بموقع الحوار المتمدن بتاريخ 2006/8/30www.aleftoday.net.، غسان المفلح، المرأة تكتب عن المرأة لكنّ الرجل دوما يكتب للمرأة،

،بتاريخ 2006/3/9. www.rezgar.com

المهيمنة وتبنّي موقف دفاعي يأبى تشخيص ما آل إليه وضع الرجولة في المجتمعات المعاصرة.

من الواضح إذن أنّ الدراسات الرجولية مجهولة في أغلب الأوساط الأكاديمية، وهي إن اعتُمدت في بعض الاختصاصات، فإنّها تلاقي عقبات كثيرة منها، أوّلا مقاومة عدد من الرجال والنساء على حد السواء، لهذه الدراسات "المستوردة" من الغرب والتي لا غاية لها، من منظور هؤلاء، سوى إضعاف همم الرجال وإيهامهم بأنّهم يعيشون أزمة وبذلك يتأتّى للغرب سلب العرب إحساسهم بالنخوة والرجولة فيتأخّر هؤلاء عن نصرة الإسلام والمسلمين والدفاع عن الأمّة.

أما العقبة الثانية فتتمثّل في عدم اقتناع فئات من الرجال بوجود أزمة رجولة. فهذا الموضوع مفتعل وهذه الأزمة[11] وهمية ومفترضة ولا تعنينا لأنّ تصدع بنيان الفحولة حدث في الغرب أمّا "العالم العربي" فإنّه بمنأى عن مثل هذه الهزّات والأمر فيه مختلف. فالرجل ليس في وضع الضحية بل إنّه مازال سيّد الموقف مستمتعا بامتيازاته، خاصّة في المجتمعات العشائرية التي لم تضح بقيمها الأصيلة وعاداتها وتقاليدها.

وفي السياق نفسه عبّرت عدد من النسويات عن مخاوفهن إزاء إرهاصات تشكّل حركات رجالية عربية. فترويج أفكار من قبيل "الرجل ضحيّة تطوّر مكانة المرأة" قد يساهم في صياغة خطاب يشرعن قمع النساء. وبالفعل وجد هذا الخطاب طريقه إلى بعض السياسيات الاجتماعية الرسمية المعتمدة في عدد من البلدان العربية، وظهر أيضا لدى التيارات الإسلامية السياسية التي بدأت في استغلال هذه الآراء لصالحها بهدف سلب النساء ما تحصّلن عليه من مكاسب.[12]

وتبدو حركة الدفاع عن امتيازات الرجال في البلدان العربية غير مقبولة، من منظور النسويات ، وذلك لأنّ الرجل الشرقي مازال محافظا على موقعه يمارس سلطة في كافة المجالات السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية والثقافية. وعلى هذا الأساس فإنّ المبادرة بالدعوة إلى تأسيس جمعيات للدفاع عن حقوق الرجال هي مسلك يتوخّاه البعض بغية إحكام السيطرة على النساء، بل هي استراتيجية معتمدة لمحاصرة الحركات النسوية.

لقد حفزنا الجدل الذي تشهده بعض الأوساط الجامعية أو الثقافية بخصوص هذه النوعيّة من الدراسات إلى استقراء مظاهر التحوّل في تصوّر الرجولة والنظر في انعكاسات تصدّع بنية الذكورة المهيمنة[13] على الجماعة.

1- في مفهوم الذكورة المهيمنة

تمثل الذكورة المهيمنة الحلم الذي يغذّي متخيّل الجماعة ويسكن أعماقها. فهي الأنموذجarchetype الذي تحوم حوله عديد التصورات والتمثلات الاجتماعية فتجعله يحتل

---

[11] لاحظ أنّ الاتفاق حول مفهوم الأزمة وتجلياتها لم يحصل في الغرب .انظر في هذا الصدد:
Clare Anthony, On Men :Masculinity in Crisis, London :Chatto and Windus 2000.,Maclnnes.John,The End of Masculinity, Buckigham, Open University,1998.,Horrocks.Roger,Masculinity Crisis,London,Macmillan,1996.,Guionnet Christine et Neveu Erik, Féminins/Masculins, Paris, Armand Colin, 2004, pp219-221.,Le Genre Humain,Le Masculin, n10,Paris, Editions Complexe.

[12] يومئ الجدل حول الدراسات الرجالية إلى إشكالية نقل النظريات الغربية من محاضنها الأصلية ومحاولة تأصيلها في بيئات مغايرة.

[13] مصطلحHegemony تكرر استعماله لدى غرامشي للتعبير عن نظام اجتماعي يحقق التوازن المنشود اجتماعيا أخلاقيا وفكريا عن طريق الإجماع.ويمكن القول إنّ الذكورة المهيمنة مصطلح سيوسيولوجي يعنى بضبط مسار سيطرة المهيمن على الآخرين بهدف ضمان خضوعهم.

المركز في حين توُضع بقية الذكورات في الهامش[14]. وتعتبر الذكورة المهيمنة مركّبا علائقيا إذ أنّها لا تعرّف إلاّ من خلال الآخر المختلف، ونعني بذلك باقي الذكورات وكذلك الأنوثات. فهي بحاجة إلي الآخر حتى تبرز تفوّقها وتعاليها وتميّزها واستحقاقها أن تكون في مرتبة الصدارة.

وعندما نتأمّل في أساليب التنشئة الاجتماعية وكتب التعليم المنتشرة في المجتمعات المعاصرة نتبيّن أنّ الأسرة في النظام البطريكي، تعمد إلى تنشئة الذكور وفق النموذج المعياري الافتراضي للذكورة. فتنمّي لديهم نوازع العدوانية ومقت الضعف وتربيهم على قمع المشاعر الحقيقية ووأد الدمعة وكبت الإحساس بالعجز والهشاشة، أي مقاومة الصفات الأنثوية.[15] وهذا يعني أنّ النموذج الذي تكرّسه المنظومة التربوية هو نموذج الذكورة المهيمنة الذي يعرّف بأنّه بناء اجتماعي ثقافي يضمن هيمنة الرجال على النساء ويحمي امتيازاتهم.

ومن الجليّ أنّ الذكورة المهيمنة تنتعش في ظلّ النظام الأبوي الذي يرتكز على بنية هرمية ويمارس الميز ويوزّع الأدوار على أساس الجنس والسنّ ويبرّر تسلّط الرجل على المرأة والكبير على الصغير. وتربض آليات الهيمنة في مؤسسات اجتماعية وسياسيّة وفكريّة ودينيّة. كما أنّ الثقافة السائدة مازالت تدعم علاقات القوّة والسيطرة العمودية. فنجد أنّ العلاقات الاجتماعية بين الزوج والزوجة، الأب والأبناء، علاقات تراتبية هرمية لا تختلف عن نمط العلاقات السائدة بين السائس والمسوس، سيّد العمل والعامل، المعلّم والمتعلّم، الشيخ والمريد وغيرها.

تقوم الذكورة المهيمنة على مجموعة من المبادئ والممارسات الجندرية التي تشرعن الهيمنة. وتتجلّى أشكال التسلّط عبر صور متعدّدة فتكون تارة مكشوفة معتمدة على العنف والقوّة وطورا متستّرة تحت قناع الترميز. وهو ما يجعلنا نعتبر أنّ الذكورة المهيمنة موصولة بالضرورة إلى بنية السلطة.

تتأسّس الذكورة المهيمنة على فكرة الصراع مع الآخر ومجاهدة النفس من أجل إثبات الرجولة والزعامة بدلالاتها المختلفة. ويجعل ليبيدو الهيمنةLibido dominandi مسار تشكّل الذكورة معقّدا تحفّ به عقبات متعدّدة، لاسيما في هذا السياق التاريخي السياسي والثقافي.

وتقوم الذكورة المهيمنة أيضا على مبدأ الإقصاء: إقصاء النساء وإقصاء الذكر البالغ الذي وهن وتخلخل ولم يرق إلى الأنموذج كالعبيد والخصيان والخدم والفقراء المعدمين والمعوقين والذين اشتهروا بالتخاذل والجبن زمن الحرب والمخنّثين والشيوخ الهرمين والأسرى وتضاف حديثا، فئات أخرى: كالمثليين والجنسانيين المغايرين والمؤازرين للحركات النسوية والمتبنّين لفكرة الأندروجينية والمعتقلين في السجون وغيرهم. ويتّخذ هذا الإقصاء أشكالا متعددة سياسية واجتماعية وثقافية ورمزية.

ومن المبادئ التي ترتكز عليها الذكورة المهيمنة إبراز مظاهر التعالي والتفوّق على الآخرين. ومن ثمّة نجد احتفاء بممارسات غايتها إثبات 'الرجولة' نذكر على سبيل المثال تفاخر الساسة بسيادتهم وقدرتهم على التصرّف في مصائر الناس واعتزاز كبار رجال الأعمال بحيازة الثروات وبقدرتهم على امتلاك الذمم والأجساد والأرواح ذلك أنّ سلطة المال تعادل سلطة القضيب، وكذلك تباهي الرجل المقتدر ماديا وجنسانيا بتعدّد زوجاته

---

[14] الجدير بالذكر أنّ أغلب المثليين يساندون النظام الجندري التراتبي الذي يضع الذكورة المهيمنة في الصدارة.

[15] يمكن الرجوع إلى عمل Stoller.Rober.J. ; Masculin ou féminin ? Paris, Puf, 1985, pp307-311.

وخليلاته واستطاعته الاستفادة من أنكحة متعدّدة باركتها المؤسسة الدينيّة ودعّمها اقتصاد البلدان التي تعيش الرخاء البترولي كزواج المسيار وزواج المصياف وزواج الوشم وزواج الدم وغيرها فضلا عن التباهي بكثرة الأولاد وهو أمر دال على اقتران الذكورة المهيمنة بالفحولة الجنسية. فالسيادة تتحقّق جنسانيّا من خلال فرض زمن الجماع وأشكال الوطء وليس من قبيل الصدفة أن يكون أفضل شكل ل'افتراش المرأة' أن تكون هي 'تحت' الرجل. أمّا اعتلاء المرأة الرجل فقد عدّه العلماء من أطباء وفقهاء[16] وغيرهم أسوء أشكال للنكاح بل هو يتسبّب في إلحاق الأذى بالرجل فضلا عن كونه دليل تطاول المرأة وكيدها وسعيها إلى الاستيلاء على مكانته. ولمّا كان الرجل الناكح، أي الفاعل فلابدّ أن يكون علويّا ومسيطرا على من هو دونه: المنكوح الذي يرمز إلى السفلي والمنخفض.

والواقع أنّ الممارسات الدالة على حبّ عرض الفحولة على الركح الاجتماعي عديدة نسوق على سبيل المثال ظاهرة التحرّش الجنسيّ، خاصّة في الفضاء العمومي، وتنافس الذكور من أجل إظهار الفحولة الجنسيّة، والتباهي بحجم القضيب، والقدرة على الاعتلاء: اعتلاء الرجل المرأة والغلام والمثلي إلى غير ذلك من الممارسات التي تحاول أن تعكس رجولة الفحل وسيطرته على من هم دونه.

وتبرز صورة الذكورة المهيمنة في الخطابات التي صاغها القدماء ممن ملكوا ناصية الكلام وحازوا سلطة، كما أنّها تظهر في الخطابات التي ينتجها اليوم الناطقون باسم الإسلام. نذكر من بين هؤلاء الدعاة ورؤساء التيارات الجماعات الإسلامية وشيوخ الإفتاء وأئمة المساجد والواعظات والداعيات وغيرهم. وتستند هذه الخطابات، على اختلافها إلى جهاز مفهومي قائم على التبرير وإسباغ طابع البداهة والشرعيّة على علاقات الهيمنة بين الجنسين. وهو أمر يُبين عن تسلّل الذكورة المهيمنة إلى البنية الذهنيّة فإذا بها حاضرة من خلال طريقة التفكير وصياغة الخطاب والتلفّظ. ومن المظاهر الدالة على ذلك تفاخر بعض رجال الدين بمدى قدرتهم على اكتساب الشهرة والزعامة الذكورية وتحوّلهم إلى شخوص كارزماتية تحتلّ موقعا في البرامج الفضائية وتجذب الأتباع. ويمكن القول إنّ شخصية الداعية الإسلامي أو العالم الممثل للسلطة الدينية الرسمية ترنو إلى أن تكون نموذج الذكورة المهيمنة على سائر الذكوريات والأنوثات.

ولمّا كانت الذكورة المهيمنة تهاب الحضور الأنثوي فإنّها تكيد له وتفنّن في استحداث الطرق الملائمة لمحاصرة تجلّيات الأنوثة مروّجة ثقافة الحجاب[17] والتمييز والعنف و'المراقبة والعقاب'. ولا غرو في ذلك مادامت الذكورة المهيمنة تتسلّح بالقضيب والسيف والعصا والقلم وغيرها مردّدة: 'لا سلطة لمن لا قضيب له'.

لا تقبل الذكورة المهيمنة التعدّد ولا تسمح بالحوار والتفاوض وعلاقات الندية. فهي استبدادية تسلّطية ترفض كلّ أشكال المقاومة والمواجهة والتحدي والمنافسة والانتقاد لأنّها ترى فيها إفراطا في البروز(visibility) وموطن خطر قادر على تهديد الذكورة وزحزحتها عن مكانها "الطبيعي" المدعوم بترسانة من الحجج الدينيّة التي تضفي عليه الشرعيّة

---

[16] انظر على سبيل المثال ابن سينا، القانون في الطب، بيروت، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، 1993، ص1593.،السيوطي، الرحمة في الطب والحكمة، بيروت، المكتبة الثقافية، دون تاريخ، ص24.

[17] عثيمين انظر على سبيل المثال فتاوى منع الاختلاط ومنع التشبه المعروضة في عدد من المواقع منها موقع يوسف القرضاوي وموقع محمد صالح ابن وموقع عبد الله ابن حميد وموقع عبد العزيز بن باز وموقع محمد صالح المنجد.
www.islamqa.com;www.almoslim.net/ www.islamiyyat.com. www.binothaimeen.com

المطلوبة كالقوامة والدرجة والفضل. وهي حجج مركزية تحظى بالقبول بغضّ النظر عن تهافت منطقها الداخلي ذلك أنّ قيمتها مرتبطة بمكانة المتلفّظ بها في المجتمع.

تعكس الذكورة المهيمنة المعايير الثقافية السائدة الخاصّة بمفهوم الرجولة في سياق تاريخي محدّد. ومعنى ذلك أنّ المفهوم غير ثابت وهو لا يكاد يختلف عن مصطلح البطريكية الذي يتجلّى اليوم من خلال صور متعددة. ولا نبالغ إن اعتبرنا أنّ نموذج الذكورة المهيمنة مازال متربّعا على عرش المتخيّل العربي الجمعي يتشبّث به عدد كبير من الرجال حتى أولائك الذين يزعمون الانتماء إلى الحداثة والدفاع عن قضيّة المرأة فضلا عن فئة من النساء. [18] جميعهم يتبنّون مقولات التفكير الفحولي وآلياته فيعيدون إنتاج نفس التمثلات الاجتماعية والتصوّرات المنمّطة التي تخدم مقاصد الهيمنة الذكورية.

وبالرغم من كلّ الجهود المبذولة من أجل تغيير منزلة المرأة وإرساء نظام اجتماعي قائم على المساواة يسود أنموذج الذكورة المهيمنة ممارسا لعبة الإغراء من حوله. وتبقى الهوامات الجمعية مكرّسة صورة الرجل السيّد المنقذ المتسلّط القويّ صاحب النفوذ. هي الرجولة المتخيّلة التي تعيش فئات على أمل عودتها وتتوق إلى إرساء قواعدها في زمن تخلخلت فيه بنية الذكورة المهيمنة.

2- **مظاهر تصدّع بنية الذكورة المهيمنة**

لئن نما شعور الثقة بالذات لدى فئة من النساء فإنّ مشاعر الاعتداد بالذات والتفاخر بالقوّة حقّقت تراجعا نسبيا لدى فئات من الرجال الذين حملوا تصوّرا مخالفا لمفهوم الرجولة. فابتعدوا عن العدوانية ونزعوا نحو المسالمة وبناء علاقات تبادلية قائمة على المشاركة.

ويثبت سلوك الشبّان الذين أقبلوا على اختبارات فنية تجريها فضائيات عديدة لبرامج مثل 'ستار أكاديمي' أو 'سوبر ستار' (Star Academy Super Star) أو غيرها حجم التغيير الحاصل على مستوى البنية النفسية الذكورية. فكم من شابّ أجهش بالبكاء، بل انتحب وولول أمام الملايين ! وكم من شابّ رقص وتمايل وتثنّى أمام الجماهير، والحال أنّ الرجل في المتصوّر التقليدي، يجب أن يحافظ على هيبته ووجاهته وأن يُحكم ضبط النفس حتى لا يبدو كالنسوان متبرّجا فاتنا ينشر الفوضى من حوله.

وبالإضافة إلى ذلك نعاين اليوم حالات تراجع فيها الخضوع الصارم للمنمّطات الجندرية المسوّغة للتمييز بين الجنسين. وهناك حالات أخرى نلمس فيها تخليا عن القيم الذكورية وميلا إلى الأنثنة كالعناية بجمال البدن واستعمال مستحضرات التجميل واتخاذ ملابس تنم عن ميل أنثوي أو التشبّه بالنساء على مستوى اللغة وطريقة الكلام والتعبير والمشية والاشتغال بالعطور وغيرها من العلامات السيميائية التي تنسبها الثقافة التقليدية للنساء. ويمكن أن نشير في هذا الصدد، إلى ارتياد فئة من الرجال أماكن التجميل وإقبالهم على حصص التدليك بمختلف الزيوت والعطور أو خضوع عدد منهم لعمليات التجميل إلى

---

[18] انظر:ماري تيراز خيري بدوي، الرجل – المرأة: انعكاس أم انكسار؟صورة الرجل من خلال أقوال المرأة وفانتازماتها، في الطاهر لبيب، صورة العربي ناظرا ومنظورا إليه،ط1، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربي،1999،ص ص783-794. .،أفراح بنت علي الحميضي، هوس نسائي، موقع لها أون لاين .

غير ذلك من المظاهر الدالة على مسايرة روح العصر وكذلك تحوّل في نظرة الرجل إلى ذاته وعلاقته بجسده.[19]

ويتجلّى الاهتمام المتزايد بتدبير الأجساد في كثرة تردّد فئة من الرجال على فضاءات ممارسة الرياضة رغبة في تنمية العضلات. بيد أنّ هذه الظاهرة لا تعكس حرصا على اكتساب صفتي القوّة والجمال بقدر ما تعبّر عن استفحال الشعور بالخوف. فقد باتت الذكورة في كثير من الحالات، غير بارزة وغير قادرة على ممارسة الهيمنة وهو أمر جعل البعض يتحدّث عن "ذكورة مهدّدة بالانقراض" ولذا يتعيّن على الرجال اليوم توظيف أجسادهم لهدف جوهري ألا وهو استعراض العلامات الدالة على التفحّل.

هناك إذن أشكال مختلفة للتعبير عن الرجولة في المجتمعات المعاصرة. فرجولة نجوم السينما والرياضة والغناء والسياسة والدين لا تتماثل مع رجولة الرجل العادي المشغول بتحصيل القوت، كما أنّ رجولة الرجل المؤمن بقيم الحداثة والمؤازر للحركات النسائية أو النسوية مختلفة عن رجولة الإسلامي المتشدّد أو رجولة شيخ الطريقة الصوفية أو رجولة المثلي أو المخنّث التي لا تتطابق مع معايير الرجولة التقليدية.

وإذا تأمّلنا في منظومة الفحولة المعرفية التي كثيرا ما تباهى الرجال بها، وخاصّة فيما يتعلّق بالمجال الديني تبيّن لنا أنّها تتعرّض اليوم ل'هجمات' حادّة. فمن النساء قاضيات، ومنهنّ مفتيات، ومنهنّ عميدات الكليات، ومنهنّ عالمات في الفقه والتفسير والحديث، ومنهنّ داعيات، ومنهنّ مؤدبات في الكتاتيب القرآنية، ومنهنّ من يطالبن بحقّهن في أن يكنّ في مواطن صنع القرار في المجالس الدينية العالمية، ومنهنّ من يتمسّكن بحقهنّ في إمامة الصلاة الجماعية إلى غير ذلك. وسواء كانت هؤلاء النسوة من الإسلاميات المنتميات إلى التيار الإسلام السياسي أو إلى غيره فجميعهنّ تصدين للحصار المضروب عليهنّ منذ عقود واخترقن الحدود. وهذا الاختراق يشكّل ، في الحقيقة، مصدر خطر لأنّه استهدف أعتى المؤسسات. وبناء على ذلك لا نستغرب بروز خطاب يلحّ على تفعيل مقولات كثيرة ومفاهيم وتصورات قديمة نذكر من بينها القوامة والحجاب والكنّ في البيوت وتأثيم النساء وتنشيط الذاكرة باسترجاع سير الرجال الأفذاذ والفرسان والأبطال في محاولة لإنعاش صور يعتقد أنّها عكست بالفعل نموذج الفحل.[20]

لقد نجم عن كلّ هذه التحولات والتشريطات الاجتماعية الثقافية عسر تأقلم فئات من الرجال مع الوضع الراهن وتفاقم إحساس عدد منهم بالاستلاب والعجز والفشل بعد أن شهدوا انهيار معالم الرجولة التقليديّة. فبات التبرّم والشكوى والحنين إلى زمن السلف الصالح حيث كان الفحل مهيبا يحتكر فضيلة الإنفاق، سمة غالبة على خطاب أكثرهم. ونتج عن بروز المرأة في مراكز قيادية تساؤلات ومخاوف عبّر عنها بعض الرجال من خلال عبارات وشعارات صارت تداول بينهم وروّج لها الإعلام مثل'إنّهن يسلبننا أماكننا' 'النساء قادمون'(كذا)، 'دولة النساء'، 'النساء يحكمن المدينة'[21] إلى غير ذلك. ولم يتوان عدد من

---

[19] من المعروف أنّ التسويق التجاري لمنتجات التجميل قد شجّع فئة من الرجال على استهلاكها وبذلك يغدو التفنّن في 'التبرّج' خاصية مشتركة بين الجنسين. لمزيد التعمّق انظر:
Guionnet Christine et Neveu Erik, Féminins/Masculins, Paris, Armand Colin, 2004, pp228.

[20] من الشخوص الممثلة للذكورة المهيمنة عمر بن الخطاب، الحجاج بن يوسف.

[21] عنوان كتاب صالح بن عبد الله العثيم، الرياض، دار ابن خزيمة، ط1، 2005.

الرجال عن التعبير عن مخاوفهم وأزماتهم. يقول أيمن زيود في هذا السياق: "لأنّنا نحن الرجال لدينا نقص في داخلنا، لا أحد يكلّمنا ونحن لا نكلّم أنفسنا، ولا يمكن أن نتكلّم مع بعضنا، لا[1] نخرج ما في داخلنا. لا أحد سألنا مرّة لماذا نبكي ؟ ما هو إحساسك وكيف عليك أن تحس به. لا أحد لفت انتباهك إلى ضرورة التحدّث مع زوجتك وكيف تربي ابنتك؟ الدور للمرأة وللأمّ...نحمّلها المسؤولية ونغيّبها عن الرجل."[22]

لئن استمّد الرجل سلطته من الشرع والقانون فراقب ومنع وقيّد وعاقب فإنّ التحولات الكبرى الناجمة عن الحداثة والعولمة قلّصت سلطة الرجال وأجبرت هؤلاء على مساءلة الذات. فانبرى عدد من الدارسين يحللون بنية السلطة ونظام تقسيم العمل وتوزيع الأدوار ويقاربون موضوع الجنسانية من زاويا مختلفة. كما عمل هؤلاء على التأكيد على أنّ الصفات التي كانت فيما مضى، تعتبر إيجابية لدى الرجل لم تعد اليوم مقبولة أخلاقيا وسياسيا.

3- **العوامل التي أدّت إلى تخلخل هذه البنية**

أدّى تعليم المرأة واكتسابها وعيا جديدا بضرورة دخول مجالات العمل إلى ظهور فجوة بين الجنسين على مستوى إدراك الذات. فبينما تبنّت المرأة في الغالب، مجموعة من القيم كالاستقلالية وتحقيق الذات وغيرها بقي الرجل في كثير من الحالات، محافظا على أيديولوجيا الذكورة التقليدية. وفي الوقت الذي فهمت فيه مجموعة كبرى من الباحثات المتخصّصات أنّ الذكورة والأنوثة مهارة (performance) وهي بمثابة دور نتقمّصه في حياتنا اليومية ونتفنّن في مسرحته على الركح الاجتماعي ظلّ عدد كبير من الرجال مصرّين على أنّ الرجولة هبة من ربّ السماء يمنّ بها على الذكور من عباده.

لقد ترتّب عن التغيرات التي شهدها العالم الصناعي تحوّل في منازل النساء وأدوارهن الاجتماعية وفي النظام الجندري، وهو أمر أثّر في الرجال، إن كان ذلك على مستوى البنية النفسية أو الهوية الجندرية أو النظرة إلى الذات. فقد تمّ نسف أهمّ مرتكزات الذكورة التقليدية وتغيّرت تبعا لذلك الأدوار والعلاقات. فلم يعد الرجل 'المنفق' والمعيل الوحيد للأسرة، بل أضحت المرأة شريكا أساسيا في تحمّل أعباء الحياة والاضطلاع بمختلف المسؤوليات ومن ثمّة صارت الزوجة تصمّم على إبداء الرأي في عدد من القرارات العائلية التي تتخذ .

وأفضى اضطلاع عدد من النساء بالأدوار المزدوجة: العمل خارج البيت والقيام بالشؤون المنزلية بالداخل إلى تعرّض الرجال لضغوط جديدة تتفاوت حجمها من بلد إلى آخر وتختلف نتائجها تبعا لقدرة الأشخاص على تجاوز العقبات والمصاعب. فعلى سبيل المثال اجبرت فئات كثيرة من الرجال على المشاركة في العمل المنزلي والنهوض برعاية الأبناء والقيام بأدوار، عُدّت فيما مضى، من اختصاص النسوان.

وانجر عن 'اقتحام ' النساء الفضاءات العمومية ومجالات العمل والمؤسسات السياسية والدينية اضطراب في الهويات الجندرية وفي إحساس الرجل برجولته. فقد حرم الرجل من مادة غلبته ولم يعد بإمكانه تصوّر العلاقة بين الرجل والمرأة على قاعدة غالب ومغلوب، وهو التصوّر الذي خلق صراعا بين الجنسين. وبعدما كان الرجل يمارس سلطته على جميع النساء صار موظفا تحت إمرة مديرة، وسائقا لدى سيّدة أعمال إلى غير ذلك.

مقابلة مع أيمن زيود: آدم مساحة لحواء لتفهم الرجل، نشرت بجريدة النهار اليومية اللبنانية بتاريخ 22 أيلول 2006.

ولم يعد بإمكان الرجل أن يُلزم المرأة بالإنجاب بعد أن تطوّرت وسائل الوقاية من الحمل والإجهاض وغيرها وتحقّق لدى شريحة من النساء مقدار من الوعي يجعلهن يعبّرن عن رغباتهن في الإنجاب أو عدمه. ولم يعد الزوج قادرا على تحميل المرأة مسؤولية عدم الإنجاب والتذرّع بهذا 'العيب' للتخلّص منها إذ صارت التقنيات الطبيّة المتطورة قادرة على تحديد هوية 'المريض'.

يعزى تصدّع النظام الاجتماعي حينئذ إلى عوامل مختلفة ولكنّ المحافظين والأصوليين يغيّبون هذه الحقيقة ويحمّلون النساء مسؤولية ما حدث ويعتبرون أنّ تطوّر مكانة المرأة هو قادح أساسي لأزمة بنيوية رجالية. فبروز النساء يهدّد ذكورة الرجال، وخاصّة متوسطي الدخل والمعدمين منهم ويُبين عن الصلة بين الرجولة والعمل والمال. فالرجل يعتقد أنّ هيبته تتوقّف على مدى قدرته على أن يكون فاعلا ومنتجا ومشاركا في صنع الحضارة كما أنّه يتصوّر أنّ المال وجه من وجوه ممارسة الفحولة ، وهو محدّد من محددات الوجاهة الذكوريّة.

لقد بدأ الرجل يعي وضعية المرأة الفعليّة ويشعر بمرارة العجز، خاصّة حين يجبر على أن يكون في وضع اتكالي: بطالة الزوج في مقابل عمل الزوجة. [23] وغير خاف أنّ البطالة تسلب الرجل سلطته على امرأته وعياله، كما أنّها تجرّده من الشعور بذكورته المتفوّقة فإذا به يعاني من عقدة الخصاء. وعندما يعجز الرجل عن الحفاظ على مظاهر القوّة المفترضة فيه تكون الفرصة ملائمة كي تنهض المرأة ب'دور الرجل'. والملاحظ أنّ أغلب الرجال يعيشون هذه الوضعية باعتبارها مصدر قلق صريح في حين يستمتع البعض الآخر بوضع الاتكال على جهود النساء اللواتي يرغبن في إثبات وجودهنّ.[24]

لقد نجم عن هجرة الرجال إلى المدن أو إلى الخارج (في السبعينات) فقدان سلطتهم على نسائهم وأبنائهم. فصار العائل غريبا داخل الأسرة فهو مجرد "بنك" يموّل مشاريع قرّرها الآخرون نيابة عنه. وقد تفاقم الوضع بعد عودة المهاجرين (في التسعينات) إذ لم يجد هؤلاء مكانهم 'الطبيعي' داخل أسرهم.[25] أمّا المهاجرون الذين اصطحبوا عائلاتهم معهم فقد تفطّنوا إلى أنّ القوانين الغربية تتدخّل في المجال الخاصّ فتمكّن النساء من حقوقهنّ وتحميهن وتحدّ من هيمنة الرجال.

ولا يمكن التغاضي عن عامل آخر تسبّب في تغيير صورة الرجل عن ذاته تمثل في وجود الحماية القانونية التي توفّرها بعض التشريعات العربية المعاصرة للمرأة. ولعلّ أهمّها قانون الأحوال الشخصيّة التونسي.[26] فضلا عن استيعاب فئة من النساء لثقافة حقوق الإنسان

---

[23] لاحظ أن هذا الوضع لا يخص المجتمعات العربية فقط بل هو منتشر في بلدان غربية انظر في هذا الصدد:
Edley Nigel and Wetherell Margaret, Masculinity,power and identity,In'Understanding Masculinities, Edited by Mairtin Mac An Ghaill, Philadelphia, Open University Press,2000,pp106-107., Guionnet Christine et Neveu Erik, Féminins/Masculins, Paris, Armand Colin, 2004, pp231.

[24] نشير في هذا الصدد إلى ظاهرة تقاعص فئة من الرجال عن الاضطلاع بمسؤولياتهم واختيارهم البطالة على العمل وإجبار زوجاتهم، (خاصة المنزل)على الإنفاق عليهم.

[25] « The Arab Society », edited by Saad Eddin Ibrahim and Nicolas Hopkins, Cairo, American University, 1989,p178. ,Hoodfar,Homa,Egyptian Male Migration and Urban Families left Behind:Feminization of the Egyptian Family or a Reaffirmation of Traditional Gender Roles,in Development,Change and Gender in Cairo:A View of the Household ,Edited by Diane Singerman and Homa Hoodfar,Bloomington:Indiana University Press,1996.

[26] تمتّعت التونسية بحقّها في أن تكون الزوجة الوحيدة وحقّ المبادرة بطلب الطلاق وصار من حقّ الزوجين المطالبة بحضانة الأطفال ولم يعد بإمكان الرجل أن يهدّد زوجته بالزواج بامرأة سواها أو الطلاق أو أن يتخلّص منها متى شاء، بل أضحى الاحتكام إلى السلطة القضائية أمرا إجباريا.

وتبنّيهن خطابا جديدا من ذلك مطالبة الشريك الجنسي باحترام المرأة ومراعاة حقّها في التصرّف في جسدها ودفاعها عن انتهاك كرامتها، خصوصا حين تساق إلى ممارسة الجنس سوقا، وهو ما يسمّى بالاغتصاب الزوجي. ولا يخفى أنّ هذه المفاهيم الجديدة تضجر أغلب الرجال وتربكهم إذ كيف لمن تربّى على قيم تقليدية تعتبر المرأة 'مملوكة' و'عانية' وترى أنّ عقد النكاح هو 'عقد للتلذّذ بآدمية' وهو أقرب إلى عقود البيع والاستئجار : استئجار البضع، أن يتعامل مع المرأة تعاملا مغايرا ؟

وبيّن أنّ ما يفزع الوعي العام الذكوري هو أنّ المرأة اكتسحت مجالات معرفية جديدة خوّلت لها تحليل تركيبة شخصيّة الرجل. فباتت الباحثة المتخصّصة في التحليل النفسي تعرّي عقد عدد من الرجال وكبتهم وتضع تجاربهم الحميمة تحت المجهر. ووفّرت المجلات المتخصّصة في علم النفس والكتب والدروس التي تتلقاها الفتيات في مختلف الجامعات مناسبة للاطلاع على ما يشكّل الهوية الجندرية ومن ثمّة صار بمقدور فئة من النساء مواجهة بعض الرجال بسلوكهم المتناقض وهشاشتهم.

وتعتبر الكتب الصادرة في السنوات الأخيرة حول الجنسانية المعاصرة معينا خصبا لتحليل معاناة عدد كبير من الرجال وتبيّن صلة العنف بالفعل الجنسي من جهة والوشائج التي تربط العدوانية باضطراب الهوية الجندرية من جهة أخرى.

وإذا تأمّلنا في وضع الرجال في البلدان الخاضعة للاستعمار كفلسطين والعراق انتبهنا إلى أنّ هؤلاء يعيشون أزمة ذكورية مختلفة إذ نقلت وسائل الإعلام، وخاصّة المرئية أخبار إذلال الرجال بدءا بالسياسة التي انتهجها 'صدّام حسين'وهو الذي جسّد نموذج الذكورة المهيمنة وصولا إلى المساجين الذين انكسروا وطعنوا في أعماقهم بعد أن اعتدى عليهم الجنود الأمريكيون والبريطانيون وغيرهم. وغنيّ عن البيان أنّ انتهاك النساء الغربيات كرامة الرجال كان أشدّ وقعا على الضمير الجمعي العربي والإسلامي من سائر الأحداث الأخرى التي شهدتها المنطقة. إنّ كلّ هذه العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية جعلت عددا كبيرا من الرجال ينتبهون إلى هشاشة ذكورتهم فهم في وضع المتلقي: سلبيون وفاقدو الإرادة[27].

لم تكن هذه التغييرات مصحوبة بتحوّل في منظومة التنشئة الاجتماعية إذ عمدت أعداد كبرى من النساء إلى إعادة إنتاج نموذج التربية التقليدية التمييزية وترسيخ صورة الفرد المنشود وهو: الذكر السويّ والأبيض والقويّ والشجاع . فلا غرو أن يخضع الرجال لأشكال من الإكراهات والضغوط التي لم يتهيئوا لمواجهتها وأن يعجزوا عن تحمّل تبعات علاقات لا يملكون وسائل أو أدوات للتفاعل معها. ولعلّ رغبة الرجال في الاحتفاظ بالامتيازات التي خصّهم بها النظام الأبوي دفعتهم إلى اتخاذ موقف الدفاع بدل مساءلة الذات وإعادة النظر في القيم الذكورية وحصر حجم الأضرار الناجمة عن تكريس أنموذج الذكورة المهيمنة، والتي تلحق الأذى بالرجال والنساء معا. [28]

---

[27]لمزيد النظر في تشكل الرجولة في فضاء السجن ارجع إلى :

Thurson.Richard, Are you Sitting Comfortably ?Men's Storytelling, masculinities, prison culture and violence,in 'Understanding Masculinities, Edited by Mairtin Mac An Ghaill, Philadelphia, Open University Press,2000,pp139-152.

[28]يمكن الرجوع إلى مؤلف Bourdieu.Pierre,La domination masculine,Paris,Le Seuil, 1998,pp95-103.

كانت الذكورة المهيمنة بالأمس، مكتفية بذاتها تغمر الفضاء في بعديه المادي والرمزي ولكنّ ذكورات 'ما بعد الحداثة' تعدّدت ومزّقت الحجب فبرزت للعيان. فهناك من يجاهر بأنّه يؤمن بنسق العلاقات الإنسانية القائم على المساواة، وهناك من يعترف بتبنّيه نمط الأندروجيني[29] ،وهناك رجال 'منشقّون' عن "حزب الفحول" وكلّ هؤلاء يدانون لأنّهم ساهموا في تشظي بنية الفحولة.

كان مصير الذكورات المتعدّدة قديما التهميش والنبذ والحجب بيد أنّ الأمر لم يعد اليوم، كما كان. فقد أدّت قيم الحداثة ومنظومة حقوق الإنسان والعولمة الثقافية إلى اكتساب الفرد وعيا جديدا بذاته وهويّته ومكانته في المجتمع ومن ثمّة في الوجود. فصار لا يتوانى عن الدفاع عن اختياراته ويطالب بحقّه في الكرامة والحياة ويرفض كلّ أساليب القهر والتمييز والإقصاء. وفق هذا الطرح برزت أصوات من داخل المجتمعات العربية تعلن عن خرقها للمنمطات الجندرية (Gender stereotypes) وتعبّر عن اختلافها ومدى حاجتها إلى الاندماج وتصرّح برغبتها في أن تعيش المغايرة علنا لا سرّا.[30]

لم تكن الذكورة المهيمنة فيما مضى تحتاج إلى تبرير ممارساتها والدفاع عن مخطّطاتها أمّا اليوم فقد باتت بأمسّ الحاجة إلى صياغة خطاب يسندها. وإزاء اختلال نظام الفوارق ظهر خطاب غايته 'حفظ ماء الوجه' بدأ يستشري ويؤثر في الجمهور من الرجال والنساء، وهو أمر مفهوم باعتبار أنّ تطوّر المرأة كان في أغلب المجتمعات، تطوّرا كميّا لا نوعيّا أضف إلى ذلك أنّ الحركات الحقوقية لم تنجح، في الغالب، في تغيير العقليات بسبب القيود المفروضة عليها. ويعتبر خطاب استعادة الذكورة المهيمنة في نظرنا، مؤشرا على تواري الحركات النسوية وضعف تأثير الحركات العلمانية في الجماهير في مقابل صعود المد الأصولي.

ويمكن القول إنّ التراجع النسبيّ في وضعية المرأة[31] ساهم في انتشار خطاب استعادة الفحولة. فمن النساء فئة شاركت في النضال الاجتماعي من أجل تحرير المرأة ولكنّها سرعان ما ارتدت 'تائبة' معلنة أنّ المصلحة العامّة تقتضي اليوم تنازل النساء عن مكاسبهنّ في سبيل منح الرجل مكانة عالية في المجتمع حتى يستعيد الوجاهة والزعامة والهيبة. وتعدّ هذه التنازلات علامة دالة على توظيف خطاب الذكورة المهيمنة لمفاهيم مركزية في الفكر العربي المعاصر كالأمّة أو القومية وغيرها بهدف استرجاع الامتيازات الذكورية.

4- **مقوّمات خطاب استعادة الفحولة**

---

[29] يصرح عدد من الناس بأنهم يتبنون الأندروجينية النفسية فلا يستنكفون عن الإقرار بوجود صفات أنثوية وذكورية لديهم. ومعنى ذلك أنهم نجحوا يندمجوا وأن يتصرفوا على هذا الأساس.

[30] في لبنان انظر مثلا المقالات المنشورة في المواقع التي أنشأها المثليون العرب أو المسلمون والجمعيات التي تأسست للدفاع عن حقوق هؤلاء كجمعية حلم وجمعية 'كيف كيف' في المغرب وجمعية سواسية للدفاع عن حقوق المثليين في العالم العربي و'تجمع سحاقيات شمال إفريقيا والعالم العربي المعروف ب ' NDéeSsesونذكر من بين المواقع: www.2002sehakia.org; www.gayarab.org; www.gayegypt.com

[31] التونسيات: انظر إبراهيم الحيدري، النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب، بيروت، دار الساقي، ط1، 2003، ص356، وانظر أيضا مقالنا 'مسيرة استمرارية أم قطيعة؟ نشر بموقع شفاف الشرق الأوسط بتاريخ 2006/3/9.
www.metransparent.com

لئن انطلقت في الغرب، وخاصّة في الولايات الأمريكية الحركات الرجالية المنذّدة بما آل عليه وضع الرجال بعد تحرّر المرأة[32] فإنّ ردّ فعل الرجال في العالم العربي والإسلامي على الحركات النسائية والنسوية التي أثّرت في البنى الاجتماعية والسياسية والثقافية والقانونية اختلف من بلد إلى آخر، كما أنّه لم يظهر في شكل حركات رجالية صريحة ومنظّمة تعترض على الحركات النسائية، بل ظهر في لبوس دينيّ وفي ثنايا الخطابات التي تصاغ حول المرأة. وشهدت عديد البلدان استئساد رجال احتلّوا مواقع مختلفة في الأحزاب والنقابات والمنظمات غير الحكومية والمؤسسة الدينية وغيرها عملوا على الدفاع عن'الشريعة ' وتثبيت الأدوار التقليدية والحدّ من طموح النساء' الجارف' الذي يعصف بكيان الأمة.[33]

ويتجلّى تحرّك الرجال أو مقاومتهم للمدّ النسائي في شكل خطاب يرفض تعريض الذكورة للاهتزاز يدلي به من كانوا في مواطن صنع القرار ويظهر أيضا في رفض السلفيين المعاصرين لكافة مظاهر تغيير المؤسسات الاجتماعية والسياسية والقانونية التي أدّت إلى تحوّل في وضعيّة المرأة والعلاقة بين الجنسين. ولا يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ إذ تبدو 'المقاومة الرجالية' في ممارسات يوميّة عديدة تبرز التأزّم الحاصل في البنية العلائقية بين الرجال والنساء، وهو توتّر يصل إلى حد اللجوء إلى العنف المادي واللفظي والرمزي. فكلّما شعر الرجل بأنّ تطور المرأة هدّد مكانته في الخارج ازدادت رغبته في عرض قوّته داخل المنزل. فهو السيّد المسموع الكلمة ذو السلطة التي لا تناقش وعلى الزوجة أن تكون التابع والخاضع. وكلّما نفى الرجل أزمته وأنكر مكابدته لشتى ضروب المعاناة ازداد تشبثا بممارسة العنف ضدّ النساء، وهو إجراء يُتخذ لأسباب تعويضية دفاعية.

وتكمن مظاهر مقاومة المدّ النسائي أيضا في تفشّي ظاهرة كره النساء التي نلمح صداها في خطاب بعض الدعاة الدينيين، وفي بروز فتاوى[34] لا غاية لها سوى تبخيس المرأة والوقوف أمام 'استقواء النساء' والحدّ من 'جبروتهن' وتأديبهنّ بدعوى الحفاظ على الأخلاق العامّة، والحال أنّ هذه الممارسات توظّف لغاية استرداد الهيبة الذكورية المسلوبة. وغير خاف أنّ الذين يروّجون لكره النساء إنّما يكرهون ذواتهم ويحاولون جاهدا قمع الأنوثة داخل كلّ رجل، وهو أمر يفسّر محاربة المثليين والعمل على 'استئصالهم' من المجتمع.

لقد بات خطاب إقصاء النساء وتحديد أشكال ظهورهن وزمن خروجهن إلى الفضاء العمومي خطابا أساسيا لدى الحركات الأصولية إذ استقرّ لدى أغلب المحافظين والمتشدّدين أنّ شرط إعادة بناء ذكورة سويّة متوقّف على الابتعاد على النساء. وباتت المفاهيم الجوهرية المعتمدة في هذه الخطابات في خدمة تمجيد المركزية القضيبية من جهة، والعمل على ضمان استمرار الهيمنة وديمومة الذكورة المتفوّقة من جهة أخرى.

---

[32] لاحظ أن الرجال الأمريكيين الإفريقيين نظموا مسيرة سنة 1995 في واشنطون تزعمها القائد الإسلامي لويس فارخان دعا فيها الرجال إلى أدوارهم التقليدية والعمل على حماية نسائهم وأبنائهم وهي نفس المطالب التي تقدمت بها الحركة المسيحية الرجالية. وتعبر هذه الحركات عن رفض للتغييرات الطارئة على منزلة النساء وأدوارهن كما أنها تعكس خوفا من حركة المثليين.

[33] صنف من انظر ما حدث أثناء الانتخابات الأخيرة في الكويت والبحرين بسبب إصرار فئة من النساء على المشاركة السياسية وانظر أيضا قرار ليبيا منع النساء من السفر دون محرم.

[34] فتوى منع استعمال المرأة الأنترنت بدون محرم وفتاوى منع تشبه المرأة بالرجل وتشبه الرجل بالمرأة و آخرها فتوى رضاعة المرأة الكبير.انظر www.islamweb.net ولمزيد التعمق في العلاقة بين نسق الخطاب والدور الذي ينهض به الدين انظر:
Giddens .Anthony, Modernity and Self-Identity: Tribulations of the Self ,in The Discourse Reader, Edited by Adam Jaworski and Nikolas Coupland, London, Routledge, 2001,pp421-423.

تُبين هذه الخطابات عن قلق وحيرة إزاء بروز النساء واختراقهن للمجالات الذكورية[35] ولذلك يزداد عدد كبير من الرجال تمسّكا بمبدأ ترسيخ الثوابت ومأسسة الجندر إذ لا مجال للمشاركة أو تبادل المواقع والأدوار، بل هو القرار[36]. ويزعم عدد من الرجال أنّ الهويات والأدوار لا يمكن أن تتعرّض للاهتزاز لا لشيء إلاّ لأنّ عقلانية الرجل وتمتّعه بصفات مثلى تحول دون رضوخه للأمر الواقع وتفريطه في امتيازاته.

ولمّا كانت الأيديولوجيا الأصولية مهيمنة على الثقافة العربية المعاصرة فإنّها سعت إلى إنتاج خطاب ديني يعمل على تكريس ذكورة نموذجية مرتكزة على مجموعة من القيم أهمّها القوّة. فالذكورة تعني الغلبة والشدّة والقدرة على التحكّم في النفس وفي الآخرين. وتتخذ القوّة أشكالا متعدّدة: منها استعمال العنف وسيلة لإثبات الهوية الذكورية، ومنها تباهي الأبطال بمدى قدرتهم على الوقوف في وجه الأعداء وبث الرعب في قلوبهم وتهديد أمنهم واستقرارهم وكذا ذكورتهم، ومنها صياغة الخطابات التي تمجّد الفروسيّة والفتوّة والجهاد.
وليست دعوات الجهاد في نظرنا، إلاّ صورة من صور إخراج الرجال من حالة الضعف والجبن والخور و'تمكينهم' حتى يستعيدوا رجولتهم المهدورة نتيجة تسرّب قيم الحداثة والعولمة وغيرها. كما أنّ دعوات أسلمة الأطفال والشبّان تخفي رغبة في استرجاع الصور النمطية النموذجية وحرصا على تنشئة اجتماعية تكرّس التمييز على أساس الجنس والدين وتقاوم الضعف الجنسي والعاطفي والنفسي لدى الذكور.[37]

ويتأسّس الخطاب التعليمي الوعظي الموجّه إلى ذكور الأمّة على أسلوب الترهيب والترغيب، الأمر والنهي، توضيح الحلال والحرام. فالخبير بأمور الشريعة يتخذ موقع الآمر الذي من حقّه أن يضرب الوصاية على العباد. وما على الرجل'العادي' إلاّ التنفيذ والتماهى مع النموذج الذكوري المركزي. كما يتعيّن عليه أن يجوهر الفروق بين الجنسين على مستوى المواقع والأدوار والسلوك وهندسة الفضاءات وغيرها وبذلك يكون جديرا بالانتماء إلى الجماعة والتعبير عن قيمها ويتسنّى له أن يكون رجلا في زمن عزّ فيه الرجال و'الرجال قليل.'

لئن جسّدت فئة قليلة من الرجال نموذج الذكورة المهيمنة فإنّ أغلب الرجال يدعمون مشروع هيمنة المؤسسة البطريكية ويساهمون في الترويج له من أجل إخضاع النساء وتثبيت المنازل والأدوار وبهدف الاستفادة من امتيازات توفّرها المؤسسة البطريكية. وتكمن مقوّمات خطاب استعادة الذكورة المهيمنة في العمل الحثيث على إعادة بناء الذكورة على

---

[35] لاحظ اشتداد المنافسة بين الدعاة والداعيات، رجال الإفتاء والمفتيات في السنوات الأخيرة.

[36] لقد أثبت جيلبار دوران Gilbert Durand أنّنا إزاء نظامين يتحكمان في المتخيّل: نظام نهاري يحوي كل الصور والتمثلات التي ترمز إلى القوّة والسلطة والبطش مثل السيف والرمح وكلّ ما يشير إلى الرغبة في التفوّق والافتتان بصعود أعلى الهرم والسيادة والانتصار على الموت والتمرّد على القيود والبطولة والزعامة, وآخر ليلي يتضمّن الصور المعبّرة عن الألفة الحميمة والسكون والارتياح والدفء والرقة وغيرها من الصفات التي يحتاجها النظام الذكوري ليصل إلى التوازن المنشود. فلا غرابة إذن أن يحرص الخطاب على تثبيت المنازل.
Gilbert Durand, Structures anthropologiques de l’imaginaire, Paris, Dunod, 1985, pp137.

[37] والواقع أن خطاب استعادة الذكورة المهيمنة لا يخصّ "العالم العربي أو الإسلامي فحسب إذ تخوض الولايات الأمريكية بعد ال11 من سبتمبر2001 حربا داخلية تتزعمها الحركات الأصولية للدفاع عن الذكورة التقليدية واسترجاع نموذج الرجل الأمريكي القوي المستعمر. ولعل سلوك الجنود الأمريكيين وغيرهم في سجن أبي غريب حجّة على وجود ‹أزمة حقيقية في الذكورة الأمريكية'.

أسس مختلفة عن تجارب التنشئة المعاصرة. إنّه تدبير يستلهم تجارب الأمم السابقة ويعيد إلى الأذهان تاريخ البطش والتقتيل والترويع فضلا عن كونه يحاول تشكيل ذكورة بديلة مهوسة ببسط السلطان. وهو خطاب واعد يمنّي كلّ رجل ممتثل للأوامر بحيازة السلطة واسترجاع الصفات الأساسية التي فرّط فيها الرجال لصالح النساء.

يبدو هذا الخطاب مكتفيا بذاته لا يحتاج إلى تبرير أو تسويغ. فالطبيعة أو القدرة الإلهية أو الحكمة الربانية أو بداهة الأمور تقتضي أن يكون الرجل رجلا بفضائل تميّزه عن النسوان. ولا سبيل إلى قلب الأمور رأسا على عقب، بل يجب على الرجال اليوم وضع الأمور في نصابها.

نخلص إلى القول إنّ خطاب استعادة الفحولة يرتكز على الآتي:

- حثّ الرجل على ممارسة العنف بجميع أشكاله[38] إذ في ذلك فرصة لإثبات السيادة في ظلّ أنظمة مستبدّة لا تتوانى عن استعمال شتّى أصناف العذاب، وخاصّة منها الانتهاك الجنسي.[39] وما من شكّ في أنّ طعن الرجال في ذكورتهم قد حوّلهم في الغالب، إلى وسائل توظّفها الأصولية الجهادية للردّ على الأعداء في الداخل والخارج. فالمقهور يمارس العنف بحقّ من هو 'تحت' سلطته: أسيرا في يد الإرهابيين أو زوجة يمتلكها رجل أو ابنا خاضعا لسلطة الأب.

- إيهام الرجال بأنّ الذكورة سيادة وتسلّط وأنّ هيبتهم تتوقّف على مدى التزامهم بالقيم والمعايير التي ينتجها المجتمع البطريكي، وهذا يعني أنّ النموذج يمكن أن يعمّم على الجميع وما على هؤلاء إلاّ أن يدعموا هذا المشروع الذي سينقذهم من الذلّ والهوان.

-إقناع الرجال بأنّ سبب معاناتهم يعود إلى مؤامرة أجنبية استهدفت النساء. فقد تسلّل الغرب من خلال الدعوات التحررية والحركات النسوية وتشجيع المنظمات الحقوقية.[40] ولا سبيل إلى الخروج من هذا الوضع المتأزّم إلاّ بإعادة النساء إلى خدورهن ورجوع الرجال إلى مواقعهم الأصلية. ولا مراء في أنّ هذا الخطاب لا يفهم إلاّ في ضوء تحليل نمط العلاقة بين الأنا/ الآخر، الشرق/الغرب، الإسلام/ الغرب إذ كثيرا ما يبدو الغربي متميّزا بالقوّة غازيا ومتسلّطا ولذلك يتعيّن على المسلمين التركيز على قيمة القوّة بدلالاتها المختلفة حتى يسترجعوا المكانة التي فقدوها.

- ترويج صور نمطيّة تتغنّي بالفحولة 'الشهريارية' وتكرّس المركزية القضيبية في جميع تجلياتها وتجذّر تقاليد الاحتفاء بالأبطال والشهداء ممن اعتبروا رجالا بأتمّ معنى الكلمة. وغير خاف أنّ هذا الخطاب يتسامى فوق الواقع أو يهرب منه فيلتجئ إلى القصص

---

[38] لعلّ أخطر أنواع العنف الملاحظ في السنوات الأخيرة عنف تأويل النصوص وإنتاج الفتاوى المهينة للمرأة والمكرسة للدونية. انظر مقالنا " عنف النصوص وعنف التأويل"، في مؤلف جماعي 'المرأة المتوسطية وتحديات التنمية البشرية'، المغرب، نشر مركز إيزيس لقضايا المرأة والتنمية، (2008/2007، قيد النشر).

[39] المرئي الواقع أنّ ثقافة التمييز القائمة على ممارسة العنف بأشكاله المتعدّدة استشرت في السنوات الأخيرة من خلال وسائل الإعلام، وخاصّة منها الإعلام الذي يفرض نفسه على الجميع.

[40] انظر مثلا مقال:الحركة النسوية من المساواة إلي الجندر.. "دراسة نقدية إسلامية"،نشر بتاريخ 1/15/ 2006. موقع لها أون لاين www.lahaonline.com

والأساطير التي تتحدّث عن البطولة في محاولة لتعويض الواقع بالخيال وتناسي مرارة الفشل فهو بالتالي آلية من آليات الدفاع.

- ترغيب الرجل في خوض غمار الحروب والإقبال على الجهاد دفاعا عن شرف العشيرة والأمّة ذلك أنّ الذكورة تقترن بساحة الوغى التي تعدّ أفضل مكان لاستعراض الفحولة. فالحرب فرصة لاختبار الرجولة والتمييز بين الفحل و'أشباه الرجال'. [41]ولئن احتلّت القوّة الجسدية مرتبة الصدارة في المنظومة القيمية فإنّ مبدأ قوامة الرجل هيمن على سائر المبادئ ، وهي قوامة مادية ونفسية وجنسانية ومعرفية ورمزية.[42]

-إقناع الرجال بضرورة لمّ الشمل ووحدة الصفّ. فالذكورة المهيمنة تتطلّب مؤازرة وتعاضدا وتكتّلا لمواجهة المصاعب. فالراغبون في اكتساب هيبتهم الذكورية الأصيلة مستهدفون. فهم يواجهون الحركات النسوية ومنظمات حقوق الإنسان ومنظمات حقوق المرأة وجمعيات حقوق المثليين وغيرهم. كلّ هذه الحركات تنادي بضرورة تخلي الرجال عن مجموعة من المفاهيم التي لم تعد تتلاءم مع روح العصر. وأمام هذا الوضع يطلب من الزوج أن يمارس سيادة في بيته ويطلب من الرجل في العمل أن يضيّق الخناق على الزميلات حتى يلزمن بيوتهن ويطلب من الرجل في الطريق العامّ أن يمارس العنف ضدّ النساء المتبرجات اللواتي 'يزاحمن' الرجال في الفضاء العمومي. وهكذا يتسنى إخلاء المدن من النساء.[43]

يخوّل لنا استقراء خطاب استعادة الذكورة المهيمنة الوقوف عند هوامات الرجل وآمالهم ومخاوفهم وصراعاتهم وأساليب دفاعهم الواعية وغير الواعية من أجل حماية ذكورتهم. فهم لا يتوانون عن إسقاط كلّ الصفات السلبية التي لا يحبّذونها على النساء.
فالرجل مضطرّ إلى مجاهدة الذات وتحقيق الضبط الداخلي حتى لا تتسرّب عناصر من الصفات الأنثوية (الضعف، الرقة ، اللين...) فتنجسّه وتضعفه . كما أنّ الرجل مدعو إلى الحدّ من تطلعات النساء وحجبهن حتى لا يزلنه عن عرشه ويحللن مكانه. وكلّما كانت المرأة بعيدة عن ناظره ازداد إحساسه بتفوّق ذكورته. وهكذا ندرك أنّ خطاب التمييز بين الجنسين وجوهرة الفوارق يبرز صورة للرجل تقف نقيض ما يدعيه. فالذكورة المهيمنة لا تقوى على مقاومة الإغراء وسرعان ما تنهار أمام فتنة الأنثى، ومعنى ذلك أنّ الذين يسمون المرأة بالضعف واللين والانقيادية والشهوة والمحسوس والفوضى إنّما هم في الحقيقة، يسبغون عليها الصفات التي يكرهونها في ذواتهم.
وينمّ هذا الخطاب الارتدادي إلى انفصام في شخصية منتجيه أو متبنّيه الذين يتشبّثون بمنطق التمييز وآلياته رغم وعيهم بأنّه لا يمكن أن يعبّر عن احتياجات المرأة في العصر الحديث أو أن ينسجم مع دولة القانون والمؤسسات. ولئن انحاز المشرّع لفائدة المجتمع الذكوري حتى بدت تشريعات عدد من البلدان العربية متناقضة مع الواقع الاجتماعي ومع

---

[41] لمزيد التعمق في صلة الحرب ببناء الرجولة انظر:
Keen. Sam ; Etre un homme : pour une nouvelle identité masculine, Paris, Ed du Rocher, 1995, pp60-79.

[42] ارتبطت القوامة في نظر عبلة الكحلاوي بالجهاد والدفاع عن الأمة وحماية الأسرة وتعتبر الكحلاوي أنّ المرأة الرافضة للقوامة محرومة وهي ضحية الانخداع بالأفكار المستوردة والشاذة. كما أنّها ترى أنّ الرجل تخلى عن القوامة عندما اتكل على مال زوجته. (برنامج المرأة في الإسلام قناة المحور بتاريخ 4/ 2/ 2007).

[43] انظر مثلا الضغوط الممارسة على المرأة السعودية في مقال أمل القحطاني، يجب وقف العنف ضدّ المرأة السعودية' نشر في موقع الحوار المتمدن بتاريخ 2004/10/13.

الدساتير التي اعترفت ضمنيا بالمساواة فإنّ هذا الانحياز مخبر عن هروب من مواجهة التحوّلات الطارئة على بنية المجتمعات العربية المعاصرة.

ليست غاية الخطابات المنادية بعودة النساء إلى خدورهن إلاّ فسح المجال أمام الرجال حتى يختبروا ذكورتهم من جديد. فأشدّ ما يخشاه الرجل أن يوضع في اختبار مع المرأة فيقوّمان بنفس المعيار وعلى أساس مبدأ المساواة. فحسب نظرية العقد الاجتماعي المرأة مثلها مثل الرجل كائن حرّ ومسؤول ومتمتّع بنفس الحقوق التي يتمتّع بها الرجل ولكن شتّان بين النصّ و الواقع .

قليلون هم الرجال الذين يقبلون المنافسة وتفوّق المرأة عليهم ولذلك نرى أنّ أغلب الرجال يحتمون وراء حقوقهم التاريخية حتى لا تفلت المرأة من سلطتهم وتشبّ عن الطوق إذ أنّ ذلك يعرّضهم لامتحان عسير. فالرجولة ارتبطت بالتسلّط أكثر من ارتباطها بالقدرة على إثبات الذات. وبناء على ذلك يسعي عدد من الرجال إلى تجنّب وضعيّة الاختبار بينما يلجأ آخرون إلى تبنّي سلوك ازدواجي مخبر عن الخوف من مواجهة الذات والعجز عن الإقرار بأنّه ليس من الهيّن القبول بخروج المرأة عن سلطة الرجل.
تعتبر هذه الخطابات في نظرنا، هشة واهية إذ أنّها تريد أن تصفي التاريخ وأن تطهّره من التلوّث الأنثوي: تريد منه أن يكون كما كان دوما تاريخ الرجال. فالمركزية الذكورية ترفض الاعتراف بإسهامات النساء لأنّها تؤمن أنّ الذِكر لا يستحقّه إلاّ الذكرُ صاحب القضيب الذي سيطر على المجال الخارجي. بيد أنّه لم يعد بالإمكان منع النساء من العمل والخروج والمشاركة وفرض الذات غاية ما نجح فيه أصحاب هذه الخطابات "فرض" الحجاب على النساء في بعض الدول أو ممارسة الضغوط حتى تخضع النساء لمطالب الرجال.[44]

تنهض هذه الخطابات حجّة على أنّ الهيمنة مقوّم أساسي من مقوّمات الذكورة وهي علامة دالة على أنّ رغبة الرجل في الحفاظ على الهيمنة(الاجتماعية والسياسية والدينية...) جعلته يحوّل المرأة من كائن مستقلّ وحرّ إلى رمز وموضوع للمعارك التي تدور، في الغالب، بين الرجال: بين أنصار الهوية والقومية والشريعة والإسلام من جهة، والعلمانيين والليبراليين وغيرهم من جهة أخرى.[45]

ويمكن القول إنّ أزمة الذكورة وما انجر عنها من بروز علاقات صراعية بين الرجال والنساء مأتاه السياق السياسي الاجتماعي السائد. فحين تسلب إرادة المرء ويتم التصرّف في مصيره وتصادر حرياته وتتقلّص مجالات فعله يتحوّل إلى منفّذ لإرادة الآخرين وآلة إنتاج تساعدهم على تنمية ثرواتهم. وكلّما شعر الرجل بفقدان ما به تتحقّق الذكورة انقلب عدوّا للمرأة. ومعنى ذلك أنّه لا يمكن النظر في تغيير بنية الرجولة المتفوّقة بمعزل عن بنية السلطة في جميع مظاهرها.

---

[44] ولكن ألم يؤد فرض الحجاب إلى بروز ظواهر تشي بالثورة المضادة: سفور أغلب النساء بمجرد أن تطأ أقدامهن بلدانا لا يفرض فيها الحجاب وانغماس بعضهنّ في الملذّات فضلا عن ظاهرة تبرّج فئة من المحجّبات في الطريق العامّ فهن لا يتوانين عن ملامسة الرجال ووضع أرطال من المساحيق، بل السعي إلى تصيد الرجال.

[45] انظر مثلا ما خلفته أزمة الحجاب في فرنسا وكذلك في مصر.

الخاتمة

تعيد هذه الخطابات تشكيل الماضي وفق مصالحها الآنية وتبتغي تثبيت مقولات وترسيخ اعتقادات مفادها أنّ الذكورة المهيمنة خالدة أبد الدهر لا يمكن أن تعصف بها رياح التغيير فتلفظها خارج التاريخ. وليس الإصرار على ديمومة الذكورة المهيمنة إلاّ علامة دالة على أنّ الجماعة التي تمتلك السلطة تريد أن تتكفّل بتحديد الهوية الذكورية 'الأصيلة'authentic وتعطي لنفسها حقّ نحت الهوية الأنثوية، بل إنّها تفرض على النساء التشبث بهوية صيغت من الخارج وفق احتياجات الآخر. وهكذا يتسنّى لمن يملك مفاتيح النظام الرمزي أن يصوغ النظام الاجتماع والنظام الجندري وفق هواه.

يدرك المتفحّص في محتوى هذه الخطابات أنّ صورة الرجل عن نفسه هي بمثابة بناء في المتخيل يتجلّى في الخطاب والصورة التي يحملها كلّ رجل عن رجولته. فهي بالتالي ذكورة لا تعكس الواقع المعيش إنّما هي "صناعة" تستفيد من وسائط (الأمثال، الأغاني، الأقوال المأثورة...) ومؤسسات تدعمها وجهاز مفهومي يعضدها كالطبيعة والفطرة والحكمة الإلهية وغيرها من المفاهيم الحديثة التي توظّف لدعم البنى الذكورية القديمة. وهذا يعني أنّ الأيديولوجيا الجندرية تقبل توشية الخطابات المعاصرة بمفاهيم جديدة هي محصّلة ما توصّل إليه العلم الحديث من نتائج 'علمية' من أجل تبرير أفضلية الرجل على المرأة.[46]

تعكس المسألة الرجولية مشاغل فئات كبيرة من المجتمع باتت تطرح أسئلة محرجة. ولكن هل نحن بحاجة إلى ترميم بنيان الرجولة المتداعي، أم تفكيك بنية الذكورة المؤسطرة وفهم منطقها الداخلي والاعتراف ب'سقوط الآلهة' فقد آن الأوان للظهور بلا أقنعة. إنّ الشجاعة تقتضي مواجهة الذات وتعرية البنى الرمزية اللاواعية والتحرّر من سطوة الموروث الاجتماعي. ويعدّ التحرّر من كلّ أشكال الأسر، في نظرنا، شرطا ضروريا للخروج من المآزق وتحقيق التحوّل الخلاّق.

يثبت الاهتمام المتزايد بتحليل بنية الذكورة، سواء كانت مهيمنة أو مهمّشة أنّ المسألة الرجالية في طريقها إلى الطرح الأعمّ والمعمّق. ولن يتسنّى، في اعتقادنا، الحفر في 'أركيولوجيا الرجولة 'وفهم ما أحدثته من أضرار إلاّ في ضوء الغيرية. فالآخر'الجواني' أو الخارجي هو الذي يسمح لنا بفهم أنفسنا وإدراك واقعنا. ولئن وصل الآخر إلى مرحلة نقد الدراسات الرجولية وطرح تصورات جديدة ومشاريع بديلة لنمط العلاقات بين الجنسين ولأساليب التنشئة الاجتماعية والتعليم فإنّ المجتمعات العربية ذات البنية التقليدية لا تزال تتلمس الطريق متسائلة عن حكم الانشغال بموضوع الرجولة: حلال أم حرام؟.

---

[46] انظر على سبيل المثال الحجج التي اعتمدتها: سيما عدنان أبو رموز، (النوع الاجتماعي) الجندر، ماجستير دراسات إسلامية معاصرة، إشراف مصطفى أبو، صوي، القدس،2005،عمل مرقون. ، مقالات أخرى كتبت حول الجندرwww.islamnoon.com/